IUGJEPS
Vol 27, No4, 2019, pp 331-346

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (2018-7-4)، تاريخ قبول النشر (2018-9-30)

الخطاب الحجاجي في معلقة عنترة بن شداد

اسم الباحث: د. كمال فواز سلمان *1

1اسم الجامعة والبلد: اللغة العربية - الآداب - الجامعة الاردنية -الاردن

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: Kamal_0598@hotmail.com

الملخص:

يحاول هذا البحث دراسة مظاهر الحجاج في معلقة الشاعر عنترة بن شداد، وتحليلها، واستعراض الحجج والبراهين التي استعان بها الشاعر؛ لإثبات مكانته العلية بين أبناء قبيلته لتحقيق ما يريد.

وفي أثناء ذلك، سأتناول البنى الحجاجية، التي أدخلها الشاعر في نسيج نصه الشعري؛ في سبيل الدفاع عن نفسه، وإظهار مكانته العلية بينهم، ثم محاولته استمالة أبناء عشيرته إلى جانبه، وعلى رأسهم عمه.

لذلك تناول الشاعر في شعره التناقض وعدم التناقض؛ وذلك للوصول إلى ما يريد؛ فغصت القصيدة بالحجج والبراهين؛ التي تناولها لإقناع قومه بفروسيته وأصالته؛ فهو فارس شجاع مقدام.

كلمات مفتاحية : الحجاج، معلقة، عنترة بن شداد.

The speech of Al-Hajajy in the suspension of Antara Ibn Shaddad

Abstract:

This research tries to study the aspects of Al-Hajaj in the poem of the poet Antara Ibn Shaddad , and reviews the arguments and evidence Which was used by the poet; to prove his superior status among the people of his tribe to achieve what he wants.

In the meantime, I will address the structures of Al-Hajajy Which was introduced by the poet in the text of his poetic text; in order to defend himself, and to show his superior status among them, and then attempt to coax the people of his tribe to his side, headed by his uncle.

Therefore, the poet has dealt in his poetry the contradictions and non-contradictions; in order to get to what he wants; so the poem drowned with arguments and proofs, which he took to convince his people of his prose and originality, that he is a brave and courageous knight.

Keywords: of Al-Hajaj. suspension, Antara Ibn Shaddad

IUG Journal of Humanities Research (Islamic University of Gaza) / CC BY 4.0

مقدمة تمهيديَّة في المفهوم والمنهج:

يتناول البحث الحجاج في معلقة الشاعر عنترة بن شداد، التي وصف فيها حاله؛ حيث "جلس الشاعر يوما في مجلس بعدما كان قد أبلى، واعترف به أبوه وأعتقه، وعابه رجل من بني عبس وذكر سواده أمه وإخوته، فسبه عنترة وفخر عليه، وقال فيما قال له: إني لأحضر البأس وأوفي المغنم وأعف عند المسألة وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء، فقال له الرجل: أنا أشعر منك. قال: ستعلم ذلك. فقال عنترة يذكر قتل معاوية بن نزال، وهي أول كلمة قالها، وهي المعروفة بالمعلقة" (1).

كما تتناول الدراسة الروابط الحجاجية، والعلاقات التي تربط بين أجزاء النص ومكوناته؛ وتهدف الدراسة إلى معرفة الوحدة الحجاجية التي تجمع الأبيات وتؤلف بينها رغم اختلاف موضوعاتها؛ إذ تشكل موضوع القصيدة الرئيس من موضوعات فرعية؛ فقد بدأ الشاعر بذكر عبلة وأطلالها، كما في الأبيات من (1-12)، لينتقل إلى وصف عبلة.

ويبين الشاعر قضيته بكل ما لديه من معرفة، وما أسعفته به لغته من حسن استخدام الحجج والبراهين؛ ليدافع عن نفسه بكل ما أوتي من الوسائل وشتى الأدلة؛ وليغير ما فرضته عليه نظرة المجتمع السلبية، مبينا نفسه الشريفة وقلبه الكبير في آلامه وآماله، مركزا في معلقته على كل ما لديه من الابتكارات من تشخيص وتصوير؛ فلان قلبه في مواضع اللين، واشتد بسيفه وبكلماته في مواضع الشدة؛ فظل حتى يومنا يحتل قلوب عشاق الفروسية والشجاعة، ويستحوذ على عقولهم.

تكشف القصيدة عن قوة بأس الشاعر في ميدان الحرب؛ وكيف كان ذا عزيمة، كما كان فارسا مدافعا عن قومه في لحظة عز فيها الرجال، ومحاربا عن قبيلته التي لم ترحمه في الرخاء، لتأتي اللحظة التي تمكن فيها الشاعر من إثبات نفسه، والدخول إلى حصن القبيلة لتحتضنه في كنفها، وليجد الشاعر نفسه فارسا شجاعا، لا كأي فرد من أفرادها، بل إنه الشخص الذي يشار إليه بالبنان، ولطالما كان يتمنى تلك اللحظة،بأن يسمح له الزمن أن يثبت مكانه.

تنازع الشاعر موقفان في العهد الذي سبق، الأول: إحساس يدعوه إلى الصبر والتحمل، واثقا بقدوم اللحظة التي سيلتفت بها أهل قبيلته إليه.

وأما الإحساس الثاني: فهو أنه صاحب قوة وبأس؛ فهو فارس شجاع،لا يمكن لقبيلته أن تستغني عنه لمكانته؛ فجاء الزمن الذي يستطيع الشاعر أن يثبت فيه نفسه بين أبناء قومه؛ فهو الفارس الذي يبحثون عنه.

وسيحاول الباحث في هذا البحث النظر في الأسباب والأساليب الإقناعية، التي مكنت الشاعر من الظهور وإثبات مكانته بين أبناء قبيلته، وبيان الأسباب التي ساعدت الشاعر في الاندماج مع أبناء قبيلته؛ وقد نجح من خلالها في تحقيق هدفه، مقدما العديد من الحجج والبراهين التي تخدم قضيته.

وقبل كل شيء، لا بد من الإشارة إلى معنى الحجاج من الناحيتين: اللغوية، والاصطلاحية؛ وفي شأن المعنى اللغوي؛ فقد عرف ابن فارس في "مقاييس اللغة" الحجاج بقوله: "حاججت فلانا فحججته، أي غلبته بالحجة؛ وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع: حجج، والمصدر :الحجاج"(2).

وقد بيَّن صاحب "مختار الصحاح" المصطلح بقوله: "الحجة هي البرهان،وحاجه فحجه من باب رد: أي غلبه بالحجة،وفي مثل: لج فحج، فهو رجل محجاج (بالكسر)؛ أي جدل، والتحاج:التخاصم، والمحَجَّة (بفتحتين): جادة الطريق"(3).

كما تناول الزمخشري مصطلح "الحجاج"، في كتابه "أساس البلاغة"، حيث قال: "حجج: احتج على خصمه بحجة شهباء وبحجج شهب، وحاج خصمه فحجه.وفلان خصمه محجوج، وكانت بينهما محاجة وملاجة"(4).

فقد ورد في "لسان العرب":"حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه: أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها... والحُجَّة: البُرْهان؛ وقيل: الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم؛ وقال الأَزهري: الحُجَّة الوجه الَّذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وهو رجلٌ مِحْجاجٌ: أَي جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التَّخاصُمُ؛ وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نازعه الحُجَّةَ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غلبه على حُجَّتِه... والحُجَّة: الدَّليل والبرهان"(5).

فالحِجاجُ والجدال، حسب تعريف ابن منظور، هو مقابلة الحجة بالحجة، فيقول: "هو رجل محجاج: أي جدل"(6).

وقد فرّق القرآن الكريم بين معنى الحجاج والجدل في الاستخدام؛ وهذا بائن في قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ)**(7)؛ إذ أشار إلى ذلك محمد بن عاشور ، قائلا : "ومعنى حاج: خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة "(8).

وأما المعنى الاصطلاحي؛ فيرى (بيرلمان) أن الحجاج:"قول يهدف من ورائه إلى ممارسة فعل الإقناع على مخاطب، ويشترط عمل المحاجة في وجود خطيب يتوجه بخطاب إلى جمهور"(9).

ورغم تعدد معاني الحجاج ومفاهيمه، فإن البحث يقوم على تعريف (بيرلمان) و(تيتيكاه) له؛ فيورد عبد الله صولة تعريفا لنظرية الحجاج على أنها: "درس تقنيات الخطاب؛ التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم؛ بما يعرض عليها من أطروحات؛ أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"(10)، ثم يورد عبد الله صولة الغاية من الحجاج؛ وهي "أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان؛ فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين، بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه، أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة"(11).

فالأساس الذي يقوم عليه الحجاج؛ يتأتى من خلال "التركيز على دعم قضية ما، والتعقيب لها بإثبات دعواها؛ وبالتالي بيان موقف من يصر على صحة الدعوى تجاه خصمه، الذي يقنعه بالتأثير عليه؛ بإثبات الأدلة والبراهين؛ ودحض وتفنيد كل ما عند المستمع الآخر"(12).

لذا سيتناول الباحث في هذا البحث الحجاج القائم على تنوع طرق التعبير الفني؛ تلك التي اعتمد عليها الشاعر عنترة، في التعبير عن مشاعره وشخصيته وفروسيته، ثم بيان طرائق تحريك مشاعر المتلقي في سبيل استمالته إلى جانبه، ومحاولته الوصول إلى درجة الإقناع والإذعان؛ وتحيق ما يريد بالدليل الدقيق، والحجة المقنعة، دون اللجوء إلى العنف، أو استخدام طرق التهديد والوعيد؛ "ومعنى ذلك كله أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره"(13).

لقد حاولت، من خلال هذا البحث، رصد إمكانية الشاعر وقدرته على توظيف الأساليب الإنشائية الطلبية؛ من مثل: الأمر، والاستفهام، والتكرار، والتمني، وكذلك استخدام التشبيهات والاستعارات، والأضداد، والمفارقات اللغوية، وإبراز ما فيها من طاقات حجاجية، وتوضيح مدى مساهمتها في تقوية حجج الشاعر وأدائه؛ حيث يقول أبو هلال العسكري: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها، ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ؛ لأن المدار بعد على إصابة المعنى؛ ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة"(14).

– المبحث الأول: بنية الحجاج في مقدّمة المعلّقة:

تكونت القصيدة من ستة وثمانين بيتا، ستدرس بنيتها من زاوية حجاجية؛ لمعرفة غاية الشاعر الأساسية من نصه، أو غاياته المختلفة، وما هو مبتغاه، وكيف استخدم الشاعر الحجج ليعبر عما يريد.

يفتتح الشاعر معلقته بأسلوب الاستفهام التقريري، الذي شمل الأبيات الأولى من المعلقة، ومع ملاحظة قوة السبك بين أبيات القصيدة وما فيها من تلاحم؛ فالخطاب في المقدمة قائم على مخاطبة الذات، مستخدما حوارا داخليا؛ليخفف الشاعر عما في نفسه من شَجَن، ويكشف ما ألم بها؛ إذ يتساءل عنترة فيما إذا ترك صحبُه الشعراء أي طلل لم يتحدثوا عنه في قصائدهم، رغم أن هذا الاستفهام تكرر في كثير من مقدمات الشعراء ولم يكن بالجديد؛ فغدا ذكر الأطلال عند الشعراء سنة متبعة في كثير من مقدمات قصائدهم، بل إنه أفضل ابتداء صنعه الشاعر؛ لأنه وقف على الأطلال واستوقف وبكى.

ونرى أن عنترة بن شداد قد "ارتفع عن الدنيات والماديات، وشغل نفسه بتحقيق وجوده، وظل على امتداد حياته متعلقا بابنة عمه عبلة يحرق قلبَه حبُّها، وينشد بين يديها أناشيد بطولته، ويعزف على قيثارة شعره أنغامه الإنسانية السامية الحزينة... أما معلقته الميمية المشهورة فلم يصدرها بالغزل، وإنما استهلها بوصف الأطلال الذي مزجه بالحديث عن حبه لعبلة"(15).

وفي المعلقة فقد جاء تكرار الاستفهام في عجز البيت؛ لتأكيد معنى صدر البيت: (أم هل عرفت الدَّار بعد توَهُّم)،في قوله(16):

هـــل غـــادر الشعـــراء مـــن متردمِ		أم هـــل عرفـــت الـــدار بعـــــد توهـــم

إذ يفيد التكرار تأكيد حال الشاعر، وتقوية الحجة، وتأكيد مستوى الإقناع؛ فشاعرنا يسأل ذاته المتيقنة من الإجابة، التي لا يمكن أن تنسى ديار عبلة، وما حل بها من أحداث مرتبطة بزمن مضى وفات، لا يمكن استرجاع أحداثه، وإنما ما يمكن هو تذكر بعض أحداثه، بما فيها من علاقة ود أو حرمان.

نجد علاقة التناقض التي عاشها الشاعر، والتي مر بها بين زمنين: الزمن الماضي، والزمن الحاضر؛ تظهر قوة الماضي والاستسلام له بكل مجريات أحداثه؛ فلم يكن من بد سوى التسليم بما هو كائن؛ فهو يحن إلى لذة الماضي؛ لتكون حجة قوية له تساعده في بناء المستقبل.

كما أن الشاعر يقدم الحجج التي تقنع نفسه أولا؛ لينتقل بها إلى إقناع الآخرين، وفي مقدمتهم عبلة وقومها؛ فهي بؤرة الحدث التي تتمحور حولها ضروب الحجاج.

ويأتي حديث الشاعر عن ديار عبلة وأطلالها؛ ليبين المفارقة التي أصبحت واضحة بين ما كان وبين ما سيكون؛ فيصرح الشاعر بوصف الديار وما آلت إليه بعد رحيل أهلها عنها، مؤكدا تأزم الحال التي آل إليها بعد رحيل المحبوبة عن ديارها.

وتأبى نفس الشاعر النسيان، وسلطة الماضي أقوى من أن تنسى بسهولة،ولم يكن بعده عنها بإرادة منه؛ فقد حدد وحصر ما أجبره على البعد باستخدام أسلوب الحصر؛ حيث كان السبب الحقيقي الذي أبعده عن عبلة هو خوفه من أهلها؛ لذا بعدت عنه مكانيا؛ فلو كان أهلها لا يحولون بينه وبينها، لما واجه ما واجهه من معاناة.

ويكرر الشاعر مكان وجود عبلة؛ حيث يقول إنها حلت وسكنت "بالجواء"؛ أما هوففي "الحزن"، "فالصمان"، "فالمتثلم"، فيقول(17):

وتحـــــل عـــبـــلة بالجـــــواء وأهــلـنـــــا		بالحـــــــــــزن فالصـــمــــــان فالمتــثـــلـــم

ثم يكرر ذلك في البيت الذي يلي ما بعده، فقد سكنت وحلت بأرض الأعداء؛ فصعب عليه الوصول إليها، قائلا(18):

حلت بأرض الزائرين فأصبحت		عِسراً عـــلـي طلابـــك ابنـــة مخـــرم

يحاول الشاعر الدفاع عن نفسه في معلقته هذه، وبسط حججه الواحدة تلو الأخرى؛ لإثبات شخصيته أمام قوتين اثنتين وقفتا سدا منيعا في وجهه؛ فتمثلت الأولى في قوة قومه؛ وأما الأخرى فهي قوة الأعداء الذين سخروا منه؛ فبدا مدافعا عن شخصه، مثبتا الشجاعة لنفسه؛ لذا نوّع في أساليب خطابته ووسائله الإقناعية؛ فجاءت شخصيته شخصية تكاد تكون ثابتة في مستوى واحد؛ لتمثل شخصية الفارس القوي المغوار، والمدجج بالسلاح، الذي يكره الفرسان نزاله؛ وتتسم بالثبات والرزانة أيضا، فيقول(19):

ومدجـــــج كـــــــــــره الكـــمــــــاة نـــزالــــــه		لا ممـــعـــــــن هــــربـــــــــا ولا مستسلـــم

وتدور أحداث القصيدة من بداية أبياتها وحتى نهايتها، حول فروسية الشاعر وأساليبه الإقناعية، رغم أن "الهدف من الحجاج ليس تدقيق بعض الجهات المنطقية التي للقضايا، بقدر ما هو توفير الوسائل المفضية إلى إقناع الجمهور وحمله على التصديق؛ من خلال التنويع في ضروب التعبير عن الفكرة"(20).

ويعتمد الشاعر على أهم الحجج، التي يبين فيها مكانته بين أبناء قبيلته معتدا بنفسه؛ وذلك عندما قامت الحرب؛ حيث يستغيث به الجميع؛ وفي ذلك إشارة واضحة إلى مفارقة بين حالتين: الحالة الأولى قبل المعركة؛ حيث لم يبين لنا الشاعر أن أبناء قبيلته

كانوا في حاجة له، بل كانوا ينظرون إليه على أنه عبد أسود وضيع النسب، من العار أن يلحق بنسب أبيه؛ أما الحالة الأخرى فهي بعد اشتداد المعركة؛ وقد استغاثوا به إذ أصبح الفارس الذي يشهد له، في يده الحل والعقد، وهو المخلص لهم مما هم فيه من مأزق؛ وكل ذلك حجة قوية له عليهم؛ بينت أهمية مكانة الشاعر عنترة، وتبدو المفارقة جلية بين ما كان قبل المعركة وما حدث بعدها.

ويظهر من خلال بنية هذا النص؛ أن عنترة بن شداد يتبنى موقفا حجاجيا مناقضا ومضادا لعادة اجتماعية دأبت عليها القبائل، وهي عدم الاعتراف بمن كانت أُمُّهُ أَمَةً تنتمي لطبقة العبيد؛ إذ يريد أن يغير النتيجة القائمة المرتسمة في عقول أصحابها، من عادات وتقاليد بنيت في المجتمع العربي منذ قديم الزمان، ويبحث عن حجج يفرض بها أمرا واقعا جديدا.

- **المبحث الثاني: العتبات والأبعاد والأساليب الحجاجية في المعلقة:**
- **المطلب الأول: العتبات الحجاجية الرئيسة في المعلقة:**

بفعل القراءة التحليلية العميقة للغة القصيدة؛ يمكن تجلية العتبات الحجاجية التي بنى عليها الشاعر موقفه وحججه؛ حيث حشد كافة طاقاته الحجاجية الإقناعية، ويتجلى ذلك في العتبات الآتية :

1) العتبة الحجاجيَّة الأولى، وعنوانها: الوقوف على الأطلال وذكر الأحبَّة. وتكمن في الأبيات: (1 - 12)، ومفتاحها(21):

هــل غــادر الشعراء مــن متــردم أم هـــل عرفـت الــدار بعـد توهـم

بدأ الشاعر معلقته باسم الاستفهام (هل)، وقد خرج عن المعنى الحقيقي إلى معنى بلاغي وهو النفي؛ فالشاعر يؤكد أن الشعراء لم يتركوا لأحد معنى إلا وقد سبقوا إليه.

ويقدم التوجيه الاستفهامي قيمة خطابية جليلة؛"إذ يفترض السؤال شيئا تعلق به ذلك السؤال، ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء، كما أن اللجوء إلى الاستفهام؛ قد يهدف أحيانا إلى حمل من وجه إليه الاستفهام؛ على إبداء موافقته إذا أجاب على ما جاء الاستفهام يقتضيه"(22).

والقصيدة تبدأ بمقدمة طللية، بدأها الشاعر بأبيات تعد من أجمل ما قاله وأجوده، حتى عدت من المعلقات؛ إذ يفتتح معلقته بالحديث عن الطلل، ويدعو الشاعر للطلل بأن ينعم صباحا؛ متسائلا قائلا: هل عرفت ديار محبوبتك بعد شك فيها؟

فلم يخرج الشاعر عن سنة جرت في شعر سابقيه من الشعراء القدامى، واللافت أنه يجعل إنكار الديار وصعوبة الاهتداء إليها؛ نتيجة لسبب هو تغير الديار وتبدل ملامحها.

2) العتبة الحجاجيَّة الثَّانية، وعنوانها:وصف عبلة وتشبيهها بالرَّوضة الأُنف؛ وتمثِّلها الأبيات: (13- 21)، ومفتاحها(23):

إن كـنـت أزمعـت الفــراق فإنمـا زمـــت ركـائبـكـــم بلـيـــل مـظـلـــم

يتغزل الشاعر عنترة بن شداد بمحبوبته عبلة معددا محاسنها، واصفا إياها بأجمل الأوصاف؛ وذلك لما لها من مكانة في قلبه.

3)العتبة الحجاجيَّة الثَّالثة، وعنوانها: وصف النَّاقة، وتمثِّلها الأبيات: (22-34)، ومفتاحها(24):

فـتــرى الذباب بهــا يغني وحـده هــزجـــا كفـعـــل الشــارب المتــرنِّـم

4) العتبة الحجاجيَّة الرَّابعة، وعنوانها: الفخر والتَّحلِّي بالخلق وحرِّيَّة الطَّبع والشَّرف وسخاء اليد، وتمثِّلها الأبيات: (35 – 41)، ومفتاحها(25):

أبقى لها طول السفار مقرمدا ســنــــدا ومــثــــل دعـائــم المتخيـم

5) العتبة الحجاجيَّة الخامسة، وعنوانها: بلاء عنترة في الحرب وشجاعته، واصفًا المعركة الَّتي كان هو قطبها وحسام أبطالها، كما يصف فرسه وشدَّة إشفاقه عليه، وتمثِّلها الأبيات: (42– 86)، ومفتاحها(26):

ولقد شربت من المدامة بعدما ركـد الهواجر بالمشوف المعلـم

ومجمل القول في العتبات السابقة؛ يتمثل فيما غلب عليها من استخدام الشاعر لوصف ما، له علاقة مباشرة به، من أطلال ووصف لعبلة والاعتزاز بناقته؛ فأجاد في وصفهما وأبدع.

- **المطلب الثاني: الأبعاد والأساليب الحجاجية في المعلقة:**

استخدم الشاعر الحجج المتنوعة بهدف محاولة التأثير في عمه والد عبلة وقبيلتها، والتأثير في كل من هزأ به، محاولا إقناعهم بالعدول عن موقفهم الساخر منه؛ فكانت حجته تستند إلى تعداده مناقبه، وبيان ما تعدد من مواهبه، وإبراز مواقفه في الدفاع عن قبيلته؛ كل هذا جاء في سياق افتخار الشاعر بنفسه، وتفوقه على أبناء قبيلته، بالدفاع عنهم أمام الأعداء؛ وكان هدفه من ذلك تحقيق أمرين اثنين؛ أولهما: التخفيف عن نفسه، والتعويض عما يعانيه من إهمال ونسيان، وما عاناه من قبيلته من احتقار وازدراء؛ وثانيهما: إبراز بطولاته عندما عز الأبطال والرجال؛ لعل أهل قبيلته يقدرونها؛ فينال ما يصبو إليه من الحظ؛ ليبني مجدا لطالما حلم به، فيقول(27):

يُخْـبِـرْكِ مَـــنْ شَهِـــدَ الوَقيعَـــةَ أنّنِـــي أغْـشَى الوَغَـى وأعِـفُّ عِنْـدَ المَغْـنَـمِ
ومُـدَّجِـجٍ كَـرِهَ الكُمَـــاةُ نِـزَالَـــهُ لامُمْعِـــنٍ هَـــرَبـــاً ولا مُسْتَسْلِـــمِ
جَـادَتْ لَــــهُ كَـفِّـي بِعاجِـلِ طَـعْـنَـةٍ بِمُثَقَّـفٍ صَـــدْقِ الكُـعُـــوبِ مُقَـــوَّمِ
فَشَكَـكْـتُ بِالرُّمْـــحِ الأَصَـــمِّ ثِيـابَـــهُ لَيـسَ الكَريـمُ عـلـى القَـنَـا بِمُحَـرَّمِ
فتَـركْتُـهُ جَـــزَرَ السِّبَـــاعِ يَنَشْـنَـهُ يَقْضِمْـنَ حُـسْـنَ بَنـانِـهِ والمِعْصَـمِ
ومِشَـكِّ سابِغَـةٍ هَـتَـكْـتُ فُروجَهـا بالسَّيفِ عـنْ حَامِي الحَقيقَـة مُعْلِـمِ
رَبِـذٍ يَـداهُ بالقِـدَاحِ إذَا شَـتَـا هَـتَّـاكِ غَـايـاتِ التِّجـارِ مُلَـوَّمِ
لـمَّـا رَآنِـي قَـدْ نَـزَلْـتُ أُرِيـدُهُ أَبْـدَى نَـواجِـذَهُ لِغَـيـرِ تَبَـسُّـمِ
عَهـدِي بِـهِ مَـدَّ النَّهـارِ كَأنَّمـا خُـضِـبَ البَـنَـانُ ورَأْسُـهُ بِالعِظْـلَـمِ
فَطعنْـتُـهُ بِالرُّمْـحِ ثُـمَّ عَلَـوْتُـهُ بِمُهَـنَّـدٍ صَـافِـي الحَـدِيـدَةِ مِـخْـذَمِ
بَطَـلٌ كَـأنَّ ثِيـابَـهُ فِـي سَرْحَـةٍ يُحْـذَى نِعَـالَ السِّبْـتِ لَيْـسَ بِتَـوْأَمِ
يَاشَـاةَ مَـا قَنَصٍ لِمَـنْ حَلَّـتْ لَه حَـرُمَـتْ عَـلَـيَّ وَلَيْتَهـا لَـمْ تَحْـرُمِ
فَبَعَثْـتُ جَـارِيَتِي فَقُلْتُ لهـا اذْهَـبِي فَتَجَسَّسِـي أَخْبـارَهـا لِـيَ واعْـلَمِـي

يكرر الشاعر اسم المحبوبة عبلة مرات عدة؛ لغاية التودد والتقرب منها؛ وكذلك إشادة منه بمكانتها في القلب؛ فهي الفتاة التي لا يفارق اسمها لسان الشاعر؛ لما لها وقع في ذهنه، وارتباط وثيق بقلبه؛ "فالتكرار يساعد أولا على التبليغ والإفهام، ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان؛ فإذا ردد المحتج لفكرة حجة ما؛ أدركت مراميها، وبانت مقاصدها، ورسخت في ذهن المتلقي"(28).

وتكرار اسم الحبيبة "في مقطع غزلي، ينضاف إلى الحجج المعتمدة؛ في تأكيد العشق، والاستدلال على صدق العاطفة، وجدارة الشاعر بالوصال؛ وهو أمر تفطن إليه القدامى؛ فأجازوا للشاعر العاشق تكرار اسم الحبيبة؛ لما له من وقع في القلوب"(29).

ويحدد ابن رشيق القيرواني، في كتابه "العمدة"، التكرار في قوله: "لا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشويق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب"(30).

كما يصور عنترة خصمه في معلقته في ساحة الوغى، حيث يجعله بطلا يكره نزاله، وفارسا يعترف بشجاعته، ونلاحظ أن الشاعر يختار اللفظتين: الفعل (جادت)، والصفة المقدمة (عاجل)؛ إذ يبين أن موت ذلك البطل بطعنة منه شرف له، وقتل عنترة له كرم منه، وأن قتله ليس بالأمر الصعب بل تكفي طعنة عجلى لترديه قتيلا؛ وهذا الانتقاء للألفاظ يقود المتلقي إلى نتيجة هي إدراك فروسية عنترة، وشدة بأسه، وتفوقه في ميدان الحرب، فيقول(31):

جادت لـــه كـــفـــي بعاجـــل طعـنـة بمثقـــــف صـــدق الكـــعـــوب مـــقـــوَّم

وفي بيت آخر يحرص عنترة بن شداد كل الحرص، على إظهار شجاعته، وتصوير فروسيته، ورباطة جأشه؛ من خلال تصوير قوة الفارس الذي سيلاقيه في ساحة المعركة؛ فهو مدجج بالسلاح،تخافه الكماة التي تعتلي الجبال لخبرتها بالحروب؛ فهو ليس عبدا مستسلما يخاف وترهبه المعارك، فيقول(32):

ومُـــدَجَّجٍ كَـــــــــرِهَ الكُمـــــاةُ نِــزَالَــــــــهُ لا مُمْعِـــــــنٍ هَـــــرَبَــــــاً ولا مُسْتَسْلِـــمِ

ثم يقول(33):

ومِشَـــكِّ سابِغَـــةٍ هَتَــكْـــتُ فُرُوجَــهـــــا بِالسَّيفِ عنْ حَامِي الحَقيقَةِ مُعْلِـــمِ

ويستمر في وصف نفسه بعدة صفات مفتخرا بها؛ فهو يقتحم المعارك دون خوف، وهو عفيف النفس عند توزيع الغنائم، فيقول(34):

يخبرك مـــن شهد الوقيعة أننـــي أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وإزاء هذا الواقع المؤلم والظالم في آن واحد، تتحمل سلطة المجتمع مسؤولية هذا القهر الإنساني الذي عانى منه عنترة ومن شابهه، رغم أنه استطاع أن يثبت نفسه، وقد تمكن من حمايتها من التشتت والاندثار؛ فالقصيدة، إذن، تنطوي منذ افتتاحها على شعور انفعالي مشحون بالتوتر، وموقف حجاجي أثبت فيه الشاعر مكانته في قبيلته، في حين لم يستطع غيره أن يثبت نفسه، وقد رفض الشاعر صورة العبودية، التي لطالما عانى منها كثيرا، باحثا عن العدل والحرية،ومطالبا بحقه كباقي أبناء القبيلة.

وفي المجتمع الجاهلي، نرى "مفهوم العدل أو الحق عندهم، بصورة تختلف عن مفهومنا نحن للحق والعدل؛ فالعدالة عندهم لم تتحقق وتؤخذ إلا بالقوة؛ لذلك أثرت القوة تأثيرا كبيرا في تحديد مفهوم العدل والحق؛ فلكي ينال الإنسان حقه؛ كان عليه أن يجاهد بنفسه وذوي قرابته وعشيرته؛ للحصول على ما يدعيه من حق ويثبته؛ وهو لا يحصل في الغالب إلا بتهديد ووعيد، وبوساطة أو باستعمال القوة"(35).

إن حركة الزمن المناوئة للحرية، ما هي، في حقيقتها، إلا انعكاس لحركة القبيلة ذاتها؛ أي إن الزمن في حركته السالبة هذه يصبح أداة قمعية، توظف من قبل القبيلة تجاه الفرد، الذي لم يكن له علاقة في تكوينه وفي نسبه.

ولاشك في أن هذه المفارقة؛ تمثل إدانة من لدن الشاعر لسلطة قبيلته، التي تمارس الاضطهاد بحقه دونما وازع ضمير، في حين أن الشاعر عنترة ومن يمثلهم ممن طردتهم قبائلهم ولم تعترف بنسبهم، ما زالوا يدينون بولائهم لقبائلهم، مواجهين عذابات الجسد والحالة النفسية الأليمة التي يعانون منها.

وعلى الرغم من بواعث الإحباط التي تحدث عنها الشاعر في رحلة الظعائن، فإن عامل الأمل والتشبث بفكرة الحياة ما يزال قائما؛ فالرحلة بحث عن المحبوبة وزيارة لأطلالها؛ وهي تشكل نقدا واضحا لقبيلة المحبوبة التي رفضت الشاعر، كما رفضت الاعتراف به أو أن يلتحق نسبه بها.

ومن نماذج الحياة التي يوظفها الشاعر عنترة؛ بغية نقده لقبيلته وسادتها؛ الحديث عن (أنثى النعام) و(الإبل)؛ فهو يحرص على بث أسباب الأمل والحياة في عالم الأنثى، على الرغم من سلسلة الإحباطات التي واجهت الشاعر؛ فقد جابه الظعن الراحلة والزمن القاهر بالحنين والثبات على القيم، وبشيء من الصرامة، وكأن الحياة تولد فيها من جديد.

فالشاعر عنترة المحتج لعدالة قضيته، يتحدث عن قوة حجته بعدة أساليب؛ فهو يتفنن في ذلك لعله يفلح في إقناع المتلقي بالوصول إلى هدفه، وجعله يتبنى وجهة نظره، أو على الأقل يستميله إلى صفه، لا أن يكون خصما أو ندا له؛ فالخطاب الحجاجي خطاب موجه؛ غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار؛ ليترك فيه أثرا واضحا لا من حيث أفكاره بل من حيث موقفه.

وهذا ما صاغه أبو هلال العسكري في قوله: "أعلى مراتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرج في معرض المحمود، والمحمود حتى يصيره في صورة المذموم"(36).

ويذكرنا الشاعر بالأماكن التي سكنتها عبلة، ولجأت إليها، ففرق بينهما المكان، وزاد بينهما البعد؛ فنأت عنه إلى أماكن يصعب الوصول إليها؛ لصعوبة تضاريسها، وكذلك من حيث وجود الأعداء فيها، ومعنى هذا أن الحاصل واحد سواء بصعوبة الأول أو مخاطر الثاني؛ فكلاها يزيد الفراق؛ لذا كان الجمع بين المكانين في كلام الشاعر ذا قيم حجاجية مهمة؛ لأنها تقابل الشاعر وتقف عائقا بين ذاته التي يعتد بها ويفتخر، وبين عبلة التي سكنت في بيئة يصعب الوصول إليها، وما يواجهه من خطوب جمة؛ ليقود ذلك إلى اختلال ميزان القوة بين الطرفين.

كما بين الشاعر عنترة أن من يقف في وجهه ليس هم أهلها فقط بل حمولتها؛ دلالة على اتساع الدائرة المحيطة به؛ ليؤكد استحالة الوصول إليها، غير أن هذا التحليل يواجه سؤالا أساسيا هو ارتباط الأبيات السابقة، بما جاء بعدها من تصوير للعلاقة التي كانت تربط الشاعر بعبلة، وما كان بينهما من علاقة ود وصفاء، ويستذكر الشاعر العلاقة الجميلة؛ فهو بين حاضر حائر وماض سعيد يشده الحنين إليه، ويصعب التخلص منه، فيقول(37):

مـــا راعـــني إلا حمولـــة أهلهـــا وسط الديار تسف حب الخمخم

يشتكي الشاعر من وقع فراق عبلة، وقد حاول جاهدا إبقاء الحوار قائما معها؛ ليقوي أواصر الحجاج التي يريد منها تحقيق ما يريد، وكأنها لم تبتعد عنه كثيرا، مستنجدا بقوة الزمن التي لم ترحم، بل كانت عائقا بينه وبينها، طالبا منها أن تكون سندا قويا، مدافعة عنه فقط فيما علمت،من حجج وأدوات إقناع أمام الخصوم، فيقول(38):

أثـــنـــي عـــلي بمـــا علمت فإنني سمـــــح مخالطتي إذا لـــم أظـــلـــــم

إن تذكُّر الشاعر لابنة عمه، واستمرار الحوار معها، وكأنها ماثلة أمامه؛ هو طريق للتخفيف عن نفس الشاعر المصابة الكلمى؛ فهو يتذكر الذكريات الماضية السعيدة التي يحن إليها.

ويستمر عنترة في وصف عبلة؛ فيشبه نظراتها كأنها تنظر بعيون ولد الغزال (شادن)؛ ففي التشبيه دلالة على الوصل واللقاء، وإلا فكيف يكون لمن لا يرى شيئا أن يشبهه بشيء آخر؟، فيقول(39):

وكأنمـــا نظـــرتْ بعـــينـــيْ شـــادنٍ رشـــأٍ مـــــن الغِـــزلانِ ليـــسَ بتـــوأمِ

ينتقل الشاعر إلى رسم أوصاف ناقته التي يقطع بها الفلاة للوصول إلى مبتغاه؛ فهي ناقة منسوبة إلى شَدَن، وهو موضع تنسب إليه الإبل، وقد ركز الشاعر بإحكام في انتقائها على نحويوجه الخطاب إلى عناية ما يقصده؛ فهي ليست كأي ناقة أخرى، إنها ناقة غليظة القوائم، ذات جبين يعلوه انتفاخ، وقد دعي عليها بأن تحرم اللبن لتتسم بالقوة، ولبعد عهدها باللقاح، فيقول(40):

هـــــــل تبلغـــنـــي دارهـــــــا شـــدنـــيَّـــة لُعـــنت بمحروم الشـــراب مُصـــرَّمِ

ويأتي بحجة بلاغية تمثيلية؛ فهي تشبه الظليم؛ لأنه لا أذن له؛ وكأن أذنيها استؤصلتا؛ وذلك لسرعة سيرها بعد مسير ليلة ووصل سير النهار.

وإذا نظرنا إلى صفات الناقة التي ذكرها الشاعر؛نلاحظ أنها تتركز حول مبدأ القوة؛ لتعكس قوة الشاعر وقوة حجته؛ فوصف قوة الفرس تذكير للنفس بما لديها من قوة لطالما وصف نفسه بها في معلقته.

ونرى في فخر الشاعر بذاته دون اللجوء إلى الجماعة، في كامل أبيات المعلقة عامة، وفي الأبيات من (35 – إلى آخر أبيات القصيدة)،ضرورة أساسية قامت عليها القصيدة، وهي من أهم العناصر الحجاجية التي تفاخر بها الشاعر؛ حيث نأى الشاعر بخصال الذات عن خصال المجموع؛فهو يتحلى بالفضائل وحسن الأخلاق.

ويؤكد الشاعر حججه ويقويها؛ بتكرار حرف التحقيق (قد) في أكثر من موضع، مع اقترانه بالفعل الماضي، مسبوقا بالواو و(لام التأكيد)؛ فتفيد تحقيق ما هو كائن ومتصف به من صفات: كالفروسية، والقوة، والفخر بالذات، التي لطالما تمتع الشاعر بها؛ حيث جمعت له كل أسباب القوة، ويقول(41):

ولقـــد نَزَلْـــتِ فَــلا تَظُــنِّي غَــيْــرهُ — مِــنّــي بِمنــزِلَــةِ المُحَـــبِّ المُكْـــــرمِ

ويقول(42):

ولقد ذكــرتك والرمـــاح نواهـــــــل — مــني وبيض الهند تقطر مــن دمي

ويقول(43):

ولقـد حفظت وصاة عــمي بالضحى — إذ تقلص الشفتـــان عــن وضح الفـم

ويقول(44):

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها — قــيل الفوارس ويــك عنتر أقــدم

وأضاف الشاعر العنصر النفسي إلى الوصف؛ مما أكسبه تفصيلاً؛فالمحب يرقب بشغف متابعة الركائب، عندما يستعد أهل المحبوبة للمغادرة، وهذا الموقف يشبهه موقف امرئ القيس في قوله(45):

كأني غداة البين يوم "تحملوا" — لدى سمرات الحــي ناقــف حنظل

لكن امرأ القيس اكتفى بقوله "تحمَّلوا"، ولم يصف الإبل، بل ركز على بكائه، ثم بين زجر أصحابه له.

وإذا نظرنا إلى التشبيه، فإن الشاعر يبين حمولة أهل عبلة، ففيها اثنتان وأربعون ناقة، وقد جاء بالتشبيه المرسل المفصل؛ ذاكراً الأداة ووجه الشبه؛ فهي كخوافي الغراب الأسود، مبينا سوادها دون سائر الألوان؛ لأنها أنفس الإبل وأفضلها، فيقول(46):

فيهــــا اثنتـــان وأربعـــون حلوبـة — ســوادا كخافية الغـــراب الأسحم

ويبرر ابن رشيق أهمية انتقاء الألفاظ في النثر والشعر فيقول: "وللشعراء ألفاظ وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها... وقال غيره: الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار"(47)؛ لذا انتقى الشاعر ألفاظه بعناية فائقة؛ ليخدم حججه التي يريد إثباتها؛ فاستخدم في قصيدته لغة سهلة قريبة المأخذ، خالية من الوعورة والتعقيد؛ وربما كان هذا عائدا إلى طبيعة موضوع القصيدة، الذي يتطلب المباشرة والوضوح في مخاطبة الناس وإقناعهم.

لقد نوع الشاعر في استخدام الأساليب اللغوية المتعددة كأسلوب الشرط؛ ليدعم كلامه بالحجة والبرهان. كما استخدم الشرط في أكثر من موقع؛ لما للشرط من أهمية في الحجاج؛ إذ يكفي أن يسلم المتلقي بالمقدمات ليقبل النتيجة، وهو ما يجعل هذا النوع من الكلام يحتل منزلة تعلو مرتبة الكلام العادي؛ ويعرف الشرط على أنه "أسلوب لغوي يبنى بالتحليل على جزأين:الأول منزل منزلة السبب، ويتحقق الثاني إذا تحقق الأول، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول؛ لأن وجود الثاني معلق على وجود الأول"(48)؛

فأداة الشرط (لو) "وإفادتها للتعلق؛ توجب تعليق جملة على جملة أخرى، ويكون بينهما ترابط واتصال معنوي؛ حيث تكون الجملة الأولى سببية، والجملة الثانية مسببة؛ وهي أداة شرط تستعمل فيما لا يتوقع حدوثه، وفيما يمتنع تحققه، أو فيما هو محال، أو من قبيل المحال"(49)، يقول الشاعر(50):

لـو كـانَ يَـدْرِي مَـا المُحاوِرَةُ اشْتَكَـى   ولَـكانَ لـو عَلِـمْ الكَـلامَ مُكلِّمِـي

فيقول: لو كان يعلم المحاورة لاشتكى إلي مما يقاسيه ويعانيه، ولكلمني لو كان يعلم الكلام، فيريد الشاعر القول إنه لو قدر على الكلام؛ لشكا إلي مما أصابه من جراح.

ويكرر الشاعر أسلوب الشرط؛ ليفيد الإقناع والإتيان بالحجة والدليل، كما في قوله(51):

إنْ كُنْـتِ أزْمَعْتِ الفِـراقَ فإنّمَـا   زمّـت رِكابُكُـمْ بِلَيْـلٍ مُظْلِـمِ

ومثله(52):

فإذَا ظُلِمْتُ فـإنّ ظُلْمِـي باسِـلٌ   مُـرٌّ مَذَاقَتُـهُ كَـطَعـمِ العَلْـقَـمِ

وفي قوله(53):

فـإذَا شَـرِبْـتُ فإنّنِـي مُسْتَهْـلِـكٌ   مَـالِـي وعِـرْضِـي وافِـرٌ لَـم يُكْـلَـمِ

وإذَا صَحَـوْتُ فما أقَصِّرُ عنْ نَـدَىً   وكـمـا علمـت شمائلـي وتكـرمـي

وقوله أيضاً(54):

إنْ يَفْعَـلا فَلَـقَـدْ تَرَكـتُ أباهُمَـا   جَـزَرَ السِّبَـاعِ وكُـلِّ نِسْـرٍ قَشْعَـمِ

ويعد الشرط عاملا مهما في الحجاج ؛ لأن الشرط متى جاءت أركانه في أعطاف القصيدة أو القطعة؛ كانت بمثابة الدعائم والركائز التي تعجل بتبليغ المعاني وإيصالها إلى المتلقي، وتقويتها أيضا؛ فهي تغنيه عن الشك وراء دقائق المعاني ولطائفها،كما يساعد تركيب الشرط على تقييد المعنى؛ بفضل طبيعة العلاقة التلازمية بين جزئيه؛ مما يقوي المعنى .

هذا وقد كرر الشاعر أسلوب الشرط في أبيات كثيرة؛ ليفيد الإقناع والإتيان بالحجة؛ فتركيب الشرط يساعد على إظهار التلازمية بين فعل الشرط وجوابه؛ مما يؤكد ارتباط الحدثين واقترانهما وتلازم حدوثهما ، كما في قوله(55):

إنْ كُنْـتِ أزْمَعْتِ الفِـراقَ فإنّمَـا   زمّـت رِكابُكُـمْ بِلَيْـلٍ مُظْلِـمِ

ومثله(56):

فإذَا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْـمِي باسِـلٌ   مُـرٌّ مَـذَاقَتُـهُ كَـطَـعـمِ العَلْـقَـمِ

ويقول(57):

فـإذَا شَـرِبْـتُ فإنّـنِـي مُسْـتَهْـلِـكٌ   مَـالِي وعِـرْضِـي وافِـرٌ لَم يُكْـلَـمِ

وإذَا صَحَوتُ فَمـا أقَصِّـرُ عـنْ نَـدَىً   وكَمَـا علِمَـتْ شَمائِـلِي وَتَكَـرُّمِـي

ومثله(58):

إنْ يَفْعَـلا فلَقَـدْ تَرَكـتُ أباهُمَـا   جَـزَرَ السِّباعِ وكُلِّ نِسْرٍ قَشْعَـمِ

ومثله(59):

لو كانَ يَـدْرِي مَـا المُحاوِرَةُ اشْتَكَى   ولَـكانَ لـو عَلِـمْ الكَلامَ مُكَـلِّمِـي

ويبرز الشاعر المفارقات الكبيرة بين حياة عبلة المترفة وحياته الحربية القاسية، كما في نحو(60):

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية		وأبيـــت فـــوق ســراة أدهــم ملجــم

ثم يأتي الشاعر بواو "رُبَّ"، في معرض حديثه عن شدة بأسه في ساحة المعركة ،وسرعة طعنه لفارس، زوج امرأة جميلة غانية، فيقول(61):

وحَلِيــلِ غَانِيــةٍ تَركْـــتُ مُجــــدّلاً		تَمكُــو فَريصَتُهُ كَشَــدْقِ الأَعْلَــمِ

يحرص الشاعر على تصوير ذاته تصويرا يرفد الإقناع، ويدعم طاقة النص الحجاجية؛ ويتجلى ذلك مليا في قسم فرعي من أقسام القصيدة، في العتبتين: الرابعة، والخامسة؛ فما فخر الشاعر بنفسه والاعتداد بها في العتبة الرابعة، ووصف بلائه في الحرب في العتبة الخامسة؛ إلا طريقة في إظهار أحقية ذاته المتفردة، في تلك الظروف الصعبة؛ فقد جادت نفسه بالعطاء؛ لذا يبين الشاعر أفانينه في تصوير نفسه، وتصوير بلائه في الحرب، والذود عن حياض قبيلته، وشجاعته النادرة؛ وذلك ليتخطى ما هو قائم من حواجز وحدود، تقف عائقا في طريقه لتحقيق هدفه السامي؛ ولتكون حجة قوية يستند عليها الشاعر؛ وليصل بمن يقف حائلا بينه وبين محبوبته إلى درجة الإذعان؛ كل ذلك لتحقيق مبتغاه ألا وهو التخلص من قيد العبودية.

وفي العتبة الخامسة التي تصف بلاء عنترة؛ نجد الشاعر يصف أحداث المعركة مع الخصم، وكيفية قتاله لذاك الفارس الذي كانت صورته تسيطر على معظم أبيات القصيدة؛ حيث نلاحظ أن معظم أبيات القصيدة تبدأ بأفعال مقترنة بحرف من حروف العطف (الواو والفاء)؛ لتفيد المشاركة والترتيب في الأحداث؛ لمَشاهد المعركة المتتابعة من حيث الزمن؛ فقد سيطر على معظم الأبيات تركيب الجمل الفعلية المبدوءة بالفعل الماضي: (شربت، تركت، سبقت، فوددت، جادت، فشككت، فتركته، فطعنته، فبعثت، نبئت، حفظت، هممت، رأيت، خشيت).

فالتركيب الفعلي المسند إلى ضمير المتكلم؛ يساعد على تخصيص الأحداث التي تحدث عنها الشاعر في وصفه المعركة؛ فهي تقتصر على مجال التجربة الذاتية الفردية الضيقة؛ التي تظهر عظمة ذات الشاعر في وقت الشدة.

ولقد استدعى الشاعر في معلقته ذكر الخيل؛ لتكون شاهدا آخر إلى جانبه؛ للتأكيد على قوته؛ فهي "باعتبارها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحرب والفتوة والشجاعة أساسا؛ تغدو الخيل رمزا للرجولة الفذة والمجد التليد؛ وبالخيل وحدها يحقق المجد، وتصان الحرمات، وتبلغ الغايات والمقاصد"(62)، وهو ما ذكره عنترة، فيقول(63):

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك		إن كنت جاهلة بمــا لــم تعلمي

يقارن الشاعر بين ذاته الأصيلة وبين الفوارس الآخرين، الذين شهدوا معه أهوال المعركة وشدائدها؛ فالجميع يطلب النجاة مما هو فيه من خطب المعركة وهولها، بيد أنه أسند إلى نفسه خصوصية؛ أثبت فيها جلده وتحمله لما هو فيه، وتفوقه على غيره، ولم يستطع غيره تحمل ذلك، حتى الفوارس الذين تقوم على أكتافهم حماية القوم والدفاع عن القبيلة؛ ليستأثر عنترة بالبطولة وتحمل المصاعب؛ إلى أن استنجد به كل من كان حاضرا المعركة.

غير أن الشاعر أضاف، كما سنرى، حجة تمثيلية؛ليقطع بها الطريق على كل من يشك في حبه؛ وليسد بها المنافذ على كل حجاج مضاد؛ إذ من ينكر على الشاعر أو من يستطيع رد نتيجة لا تدع مجالا للشك،تفيد بطيب رائحة فم محبوبته عبلة؛ فهي تستبيك بثغر ذي حدة واضح، عذب موضع التقبيل منه، ولذ مطعمه؛ فشبه الرائحة الزكية المنبعثة من فمها؛ بصورة الرائحة الزكية المنتشرة من قارورة العطار، فيقول(64):

إذ تستبيك بذي غروب واضح		عــــذب مقبلـــه لذيــــــــــذ المطـعــم

وأما العلاقة السببية؛ فتعد "من أبرز العلاقات الحجاجية، وأقدرها على التأثير في المتلقي، وهي في حقيقة الأمر ضرب مخصوص من العلاقات التتابعية؛ إذ يحرص المتكلم على ربط الأفكار، والوصل بين أجزاء الكلام، دون الاكتفاء بتلاحق عادي

بينها، وتتابع طبيعي يجعل الأحداث والأفعال أو الأفكار والأحكام متسلسلة متجاوبة، بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة؛ فيجعل الأحداث أسبابا لأحداث أخرى"(65).

ويصل الشاعر بين السبب والنتيجة، أو بين الوسيلة والغاية، معتمدا الأدوات الحجاجية، كما في قوله(66):

أثنـــي علـــي بمـــا علمـــت فإنـــنـــي سمـــح مخالطـــتي إذا لـــم أظـــلـــم

ويخاطب الشاعر عبلة طالبا منها الثناء عليه لحسن صفاته؛ فهو سمح مسامح في معاملته إذا لم يظلم؛ فقد ربط الشاعر بين عدم ظلمه وبين مسامحته؛ فهذه بتلك؛ أما إذا ظلم الآخرين فكان ذلك نتيجة حتمية؛ وذلك لما لاقاه من ظلم الآخرين له؛ فالنتيجة أثر لمسبب،ويكون ذلك حجة له لا حجة عليه مستخدما الرابط الحجاجي (فإن)، فيقول(67):

فـــإذا ظلمـــت فـــإن ظلمـــي باسل مـــــــــــــر مذاقـــــتـــه كطـــعـــــم العلـــقـــــــم

ويبين عنترة الرغبة الجامحة لديه لتقبيل السيوف؛ (وهذه النتيجة) هي فعل طبيعي وسبب مقنع له؛ وذلك لعلاقة التشابه بين لمعان أسنان عبلة وثغرها الجميل البسّام، والسيوف البراقة اللامعة ؛ فمثل هذا السبب يقود إلى مثل هذه النتيجة المتوقعة، فيقول(68):

فـــوددت تقبـــيـــل السيـــوف لأنهـــا لمعـــت كـــبـــارق ثغـــرك المتبســـم

وهذا المبدأ صيره الشاعر سببا لنتيجة صاغها بأسلوب فني جميل يتسم بالدقة؛ ليجعل من جمالية الصورة وحسن التعبير حسن التعليل.

ويتحدث الشاعر في معرض وصفه لشدة المعركة التي خاضها ضد خصمه، فيقول: لم أزل أرمي الأعداء بنحر فرسي، حتى جرح، وتلطخ بالدم، وأصبح الدم سربالا؛ فقد توسط الرابط الحجاجي (حتى) وسط صورتين: الأولى: صورة حقيقية؛ وهي رميه للأعداء؛ وأما الأخرى: فهي صورة مجازية؛ وكأن حصانه ارتدى سربالا أحمر، فيقول(69):

مـــا زلـــت أرميهـــم بثغـــــرة نحـــــره ولبـــانـــــه حـــتـــــــى تسربـــل بالـــــــــدم

ويقوم بناء الحجة وإقناع المتلقي على أن الشاعر واسى ذاته بنفسه؛ بأن ثبت وحده في المعركة؛ إذ تكفي تلك الحجة لتكون دليلا قويا على أن نفس عنترة ليست كسائر نفوس أبناء قبيلته، بل تسمو نفسه على غيرها في المعركة، وإن تشابهت معها وقت السلم أو الصلح مع الآخرين؛ لذا بدأت الحجة تزداد قوة ليقنع بها عمه والد عبلة؛ لما له من أثر في صد العدو، فيقول(70):

إذ يتقون بـــي الأسنة لـــم أخـــــم عنهـــا ولكـــنـــي تضايـــق مقدمي

ويقول في موضع آخر(71):

يدعـــون عـــنـــتر والرمـــاح كأنهـــا أشطـــان بئـــر فـــي لبـــان الأدهـــم

إن ما يتوق إليه خطاب الشاعر عنترة؛ هو نيل اعتراف عمه به، والاعتراف بنسبه؛ لتعترف به القبيلة، وهي أعلى مراتب الحجج لدى عنترة؛ ليكون قد حقق ما كان يحلم به، من الاعتراف به حرا أصيلا، وهو ما عبر عنه في قوله(72):

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قـــيل الفوارس ويك عنتر أقـــدم

ومن خلال الصورة المتكاملة في المعلقة؛ نرى أن الشاعر يرسم لنا صورة ملتئمة في كافة جوانبها؛ فقد طغى الجانب الحجاجي على الجانب الفني؛ لما له من قدرة على الإقناع أكثر من الكلام العادي الخالي من التصوير. ولم يَغفَل الشاعر عن الجانب الفني في حجاجه؛ فالصورة في موضعها تتضمن طاقة إقناعية لا تقل عن طاقتها الجمالية، كما هو الحال في تصويره لجمال محبوبته عبلة، وقد رسم لها صورة في غاية الجمال؛ فهي تشبه ولد الغزال الجميل، حيث يقول(73):

وكأنمـــا نظـــــرت بعيـــنـــي شـــادن رشـــأٍ مـــن الغـــزلان لـيـــس بتـــوأم

ومع اقتراب نهاية القصيدة؛ تشفى نفس الشاعر، وتبرأ جراحه حينما طلبته الفوارس باحثة عنه؛ ليخلصها مما هي فيه من مأزق، طالبة منه الإقدام لنجدتها، مستخدما حرف التحقيق (قد)مع فعل الأمر(أقدم)، وهي اللحظة التي لطالما تمناها، وكانت نقطة تحول في حياته، غيرت نهج حياته ولبت ما يريده؛ فنال الاعتراف به أنه الفارس الأول في القبيلة، وبلغ الجانب الحجاجي أعلى مراتبه، وحقق الخطاب الشعري ما أراد صاحبه، إلى أن وصل بالمتلقي إلى درجة الإذعان والاستسلام،وكأن الشاعر على درجة عالية من القناعة؛ لتوصله إلى نتيجة حددت نهايتها عند الشاعر، قبل الوصول إلى النتيجة، وجاء ذلك جليا واضحا في قوله(74):

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويــك عنتر أقــدم

ينتقي الشاعر أوصاف ناقته بعناية فائقة ودقة متناهية؛ فالناقة نشيطة تجد في السير وتسرع، ويأتي بحجة تمثيلية يستدل بها على سرعتها؛ فإذا تمعّنّا في كل صفاتها التي نعتها بها؛ كان ذلك دليلا على أنها تتلخص جميعا في معنى القوة؛ وهي بذلك تعكس قوة صاحبها.

الخلاصـــة

من النتائج التي انتهى إليها البحث، أنه تبين عدم اقتصار الشاعر عنترة في الاحتجاج على فكرة أو موقف، أو على حجة واحدة بعينها، بل عمد الشاعر إلى حشد الحجج وتكثيفها وتجميعها؛ وهذا دليل قوي على قدرة الشاعر على تطويع كل ما دار في دائرته لتحقيق مبتغاه؛ فهو يبني في نصه الشعري حججه بناء محكما؛ ليصل إلى ما يريده على نحو دقيق؛ لذا نجح الشاعر في تحقيق غاياته والتأثير في المتلقين؛ فدفعهم إلى الإذعان والاقتناع دفعا؛ واستطاع استرداد المودة بينه وبين الطرف الآخر؛ فنال من الشرف ما نال؛ حتى أصبح يمتلك ما يتمناه.

لقد أظهرت الآليات الحجاجية التي تناولها الشاعر حسن التصوير الفني في القصيدة؛ فنوع في استخدام التعابير والصور الفنية؛ القائمة على التشبيهات والاستعارات والكنايات، وضمن حججه أساليب بلاغية متعددة؛ كالأساليب الإنشائية؛ من: استفهام، ونهي، وأمر، وشرط؛ أسهمت في جمالية البناء النصي، وفي قوة الأساليب الحجاجية.

وأظهر الشاعر من خلال معلقته مقدرته الحجاجية، وتفوقه على محاججه؛ فخاطب نوعين من متلقي الخطاب: الفريق الأول ممن هو في دائرة القبيلة والمحبوبة،أو الخصوم الذين سخروا منه ومن عبوديته في عصره، والفريق الثاني: المخاطب العام؛ حتى تمكن من إقناعهم بقوة حجته وتجلده؛ فحقق هدفه.

وأخيرا، كان الحجاج هو العمود الفقري لجسد النص الشعري المتمثل في المعلقة؛ فجاءت أبياتها تمتاز بقوة السبك، وحسن الترابط بين أجزائها؛ لتحقق للشاعر ما يريد.

الهوامش

(1) عنترة بن شداد، الديوان، شرح: د. يوسف عيد، بيروت: دار الجيل، (د. ط)، (د. ت)، ص13.

(2)ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، بيروت: دار الجيل، (ط1)، (1991م)، مادة (حجج).

(3) الرازي،زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،مختار الصحاح، بيروت: دار الكتاب العربي، (ط1)، (1967م)، مادة (حجج).

(4)الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،أساس البلاغة، بيروت: دار صادر،(د. ط)، (1992م)، ص113.

(5) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، (ط2)، (1992م)، مادة (حجج).

(6) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حجج).

(7)سورة البقرة، الآية 258.

(8) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع والإعلان،(د.ط)،(د.ت)، ج3، ص31، 32.

(9) بنور، عبد الرازق، الأطر الأيديولوجية لبعض نظريات الحجاج، في: الحجاج مفهومه ومجالاته،مجموعة من المؤلفين، حافظ علوي(المشرف)، إربد: عالم الكتب الحديث،(ط1)، (2010م)، ج1، ص342.

(10) صولة، عبد الله، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات، تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، (ط1)،(2011م)، ص13.

(11)السابق، ص13.

(12) بيبية، علية، الحجاج في شعر الصعاليك بين التواصل والاتصال،مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة تبسة، بسكرة،ع (18)، (2016م)،ص291.

(13) صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات، ص12.

(14) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، (ط1)، (1952م)، ص69.

(15) عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة: دار المعارف، (د. ط)، (د. ت)، ص132.

(16) عنترة، الديوان، ص13.

(17)عنترة، الديوان، ص14.

(18) السابق، ص15.

(19)عنترة، الديوان،ص21.

(20)صمودي، حمادي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، فريق البحث في البلاغة والحجاج،(د. ط)،(د.ت)، ص322.

(21) عنترة، الديوان، ص13 – 15.

(22) صولة، في نظرية الحجاج – دراسات وتطبيقات، ص38.

(23) عنترة، الديوان، ص15.

(24)عنترة، الديوان، ص16 – 18.

(25) السابق، ص18، 19.

(26) السابق، ص19 – 25.

(27) عنترة، الديوان،ص21– 23.

(28) الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه، إربد: عالم الكتب الحديث، (ط2)، (2011م)، ص168.

(29) السابق، ص169.

(30) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، (ط5)، (1981م)، ج2، ص74.

(31)عنترة، الديوان، ص21.

(32)عنترة، الديوان، ص21.

(33) السابق، ص22.
(34) السابق، ص21.
(35) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد: جامعة بغداد، (ط2)،(1993م)،ج5، ص484، 485.
(36) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص53.
(37) عنترة، الديوان، ص15.
(38) السابق، ص19.
(39)السابق، ص16.
(40)عنترة، الديوان، ص17.
(41) السابق، ص15.
(42) السابق، ص21.
(43)عنترة، الديوان، ص23.
(44) السابق، ص24.
(45) امرؤ القيس، الديوان، ص30.
(46) عنترة، الديوان، ص15.
(47) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، ص128.
(48) المخزومي، مهدي، في النحو العربي – نقد وتوجيه، بيروت:دار الرائد العربي، (ط3)، (1986م)، ص284.
(49) السابق، ص291.
(50) عنترة، الديوان، ص24.
(51)السابق، ص15.
(52)السابق، ص19.
(53) السابق، ص20.
(54)عنترة، الديوان، ص25.
(55) السابق، ص15.
(56) السابق، ص19.
(57) السابق، ص20.
(58) السابق، ص25.
(59)عنترة، الديوان، ص24.
(60) السابق، ص17.
(61) السابق، ص20.
(62) الدريدي، الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه، ص241.
(63) عنترة، الديوان، ص20.
(64) السابق، ص15.
(65) الدريدي، الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه، ص327.
(66) عنترة، الديوان، ص19.
(67) السابق، ص19.
(68) السابق، ص21 .
(69) عنترة، الديوان، ص24.
(70) السابق، ص23.
(71) السابق، ص24.
(72) السابق، ص24.
(73)عنترة، الديوان، ص16.
(74) السابق، ص24.

- قائمة المصادر والمراجع:

1 - القرآن الكريم.
2 - بنور، عبد الرازق، الأطر الأيديولوجية لبعض نظريات الحجاج، في: الحجاج مفهومه ومجالاته،مجموعة من المؤلفين،حافظ علوي(المشرف)، إربد: عالم الكتب الحديث،(ط1)،(2010م).
3 - بيبية، علية، الحجاج في شعر الصعاليك بين التواصل والاتصال،مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة تبسة، بسكرة،ع (18)، (2016م).
4 - الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي - بنيته وأساليبه، إربد: عالم الكتب الحديث،(ط2)، (2011م).
5 - الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت: دار الكتاب العربي، (ط1)، (1967م).
6 - ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، (ط5)،(1981م).
7 - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، بيروت: دار صادر، (د.ط)،(1992م).
8 - صمودي، حمادي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، فريق البحث في البلاغة والحجاج، (د.ط)،(د.ت).
9 - صولة، عبد الله، في نظرية الحجاج - دراسات وتطبيقات،تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع، (ط1)،(2011م).
10 - ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع والإعلان، (د.ط)، (2011م).
11 - عطوان، حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة: دار المعارف، (د.ط)، (د.ت).
12 - علي، جواد،المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد: جامعة بغداد، (ط2)،(1993م).
13 - عنترة بن شداد، الديوان، شرح: د. يوسف عيد، بيروت: دار الجيل، (د.ط)،(د.ت).
14 - ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، بيروت: دار الجيل، (ط1)،(1991م).
15 - المخزومي، مهدي، في النحو العربي - نقد وتوجيه، بيروت: دار الرائد العربي، (ط3)، (1986م).
16 - ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، (ط2)، (1992م).
17 - أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (عيسى البابي الحلبي وشركاه)،(ط1)، (1952م).